رَحَلَ الأخ والصّديق ... رَحَلَ محمَّد شَفيق

أ.د. مقبل التّام عامر الأحمديّ

أستاذ الأدب الجاهليّ بجامعة صنعاء

رئيس التّحرير بمعجم الدّوحة التّاريخيّ

عضو مراسل بمجمع اللّغة العربيّة بدمشق

فقدَتِ العربيَّةُ في الشّهر المنصرمِ عَلَمًا كبيرًا من أعلامها في اللُّغة والأدب والشِّعر وعِلْم الأنساب والأخبار، العلَّامةَ المَجمَعيَّ الأستاذ الدُّكتور محمَّد شَفيق بن خالدٍ البَيْطار، أستاذَ الأدب الجاهليِّ في جامعة دمشق، وعضوَ مَجمَع اللُّغة العربيَّة بدمشق. تَرَجَّلَ وهو في أَوْجِ العطاء قبل أن يُعْذَرَ إليه في العُمْرِ أو يبلغَ السِّتِّين؛

رَأَتْهُ المَنايا خَيْرَنا فاخْتَطَفْنَهُ

ففَقَدَت برَحيلِهِ الجامعةُ شيخَ أساتذتها وشاعرَهم ونسَّابتَهم وقِسْطاسَ العَروض فيهم، وحَليمَهم وحبيبَهم، وصاحبَ نَجْدتهم ومَهْوى أفئدتهم. وفَقَدَ المَجمَعُ لسانَ حقٍّ وعَدْل لا يُبارى ولا يُزاحَم، وخَلَتْ برحيله من أهلها الدَّارُ إلا ما كان من بقيَّةٍ صالحةٍ من إخوةٍ؛

وكُلُّ أَخٍ مُفارِقُهُ أَخُوهُ

أو من طلَبةٍ بَرَرةٍ رُزِقوا حَظًّا من وِراثةِ عِلْمِهِ، وتَمَثُّلِ سيرتِهِ، واحتِذاءِ نَهْجِهِ، واختِطاط دَربِهِ، وكانوا بعَهدِهِ أوفياءَ؛

وقَلَّما سادَ امْرُؤٌ إِلَّا بِحِفْظِ وَفائِهِ

***

وُلِدَ محمَّد شفيق البَيْطار في رأس المَعَرَّة بريف دمشقَ، في الثَّالث من شهر كانون الثَّاني عام 1965م، وتلقَّى تعليمَه الجامعيَّ والعالي في جامعة دمشق؛ إذ تخرَّج فيها عام 1987م، وحصلَ على الماجستير عام 1992م، عن أطروحتِه المَوسُومة بـ(شِعر حُمَيد بن ثَورٍ الهِلاليِّ جمعًا ودراسةً)، ثمَّ حصلَ على الدُّكتوراه في الأدب الجاهليِّ بمرتبة الشَّرف عام 1995م، عن أطروحتِه المَوسُومة بـ(شِعر قبيلة كَلْب بن وَبْرة جمعًا ودراسة)، وكانتِ الأطروحتان بإشراف أستاذِهِ عبد الحفيظ السَّطْلي الَّذي سَبَقَهُ إلى دار الحقِّ قبل ثلاث سنوات 16/ 9/ 2021م؛

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ ويَصْطَفي

كما كانت أطروحتاه مثالَيْنِ يُقاسُ عليهِما في جَودة الصَّنعة، ودِقَّة الضَّبط، وسَعَة الجَمْع، وحُسْن التَّخريج، وبَراعة التَّحشِية والتَّعليق، وكان لصاحبِهما الفَضْلُ على مَن جاء بعدَهُ من جُمَّاع شِعر الشُّعراء والقبائل؛ إذ كانت أطاريحُهم عالةً على رسالَتَيْهِ، من حيثُ الأخذُ والاقتباسُ والتَّمثُّل والاحتِذاء.

أَنفَق محمَّد شفيق البَيْطار جُلَّ وقتِهِ في التَّدريس بجامعة دمشق والإشراف على رسائل طلبة الماجستير والدُّكتوراه فيها، ولم يُغادِرها إلا سنةً واحدة حُمِلَ فيها على ذلك مُعارًا إلى أحد الأقطار العربيَّة تحقيقًا لرغبةِ غيره وإرضائهم، ثمَّ عاد إلى جامعته أشدَّ تمسُّكًا بها وبالشَّام، وآلى على نفسِه ألا يُفارقَها حيًّا دهرَهُ كُلَّهُ، فلم يَحْنَثْ بقَسَمه حتَّى في أشدِّ سنوات الحرب، وأقسى ظُروفِ المَعيشة، برغم ما كان يُعرَض عليه من فُرَصِ الإعارة إلى جامعاتٍ عربيَّة عِدَّة، بل اكتَفى بجامعته عمَّا سِواها، واحتَمَل معها عِبْءَ العَمَل ضِمنَ لِجان المَجمَع بعد انتخابه عُضوًا فيه عام 2022م.

وكان له إنجازٌ قلَّما عرَفَ أهمِّيَّته إلا مَن خالطَهُ، أو تابع الرُّسومَ المتحرِّكة طِفْلًا، وهو عمَلُهُ في تدقيق النُّصوص المُقدَّمة للأطفال على قناة) سبيس تون (Spacetoon /للرُّسوم المُتحرِّكة على مَدارِ ما يُربي على ثلاثين حَوْلًا، فضلًا عن كتابتِه كثيرًا مِنَ الأناشيد وشارات الأفلام والمُسلسَلات؛ فأغنى عمَلُهُ ذاك عن إرسال أولادِ اليوم إلى البادية لتَلْتَقِطَ آذانُهمُ العربيّةَ من أَفْواهِ أهلِها الأقحاحِ صافيةً بلا كَدَر، فيمتَلِكُوا بذلك فصاحةً وبيانًا وحُسْنَ إلقاءٍ من دون تكلُّفٍ أو صَنعةٍ، فنَقَلَ بصَنيعِه هذا باديةَ (بني سَعْد) إلى بيوت النَّاس اليومَ بلا عَناءٍ ولا سَفَرٍ ولا اغتراب، تلك البادية التي كان عَرَبُ الجاهليَّة يُرسِلونَ أولادَهم إليها فيُحرَمون من رؤيتهم دهرًا.

عرفتُهُ أيَّام جَمْعي أشعارَ قبيلة مَذْحِج في الجاهليَّة ضمن أطروحتي لدرجة الماجستير في الجامعة اللُّبنانيَّة عام 2000م، فكان نِعمَ المُعِين والنَّصير، وكان كتابُهُ عن شِعر كلب بن وَبْرة الذي أهداه إليَّ قبل طبعِهِ نِعْمَ الزَّادُ والعَتاد، ثمَّ توَطَّدَت الصِّلة بيننا حتَّى لا يكادُ يمرُّ يومٌ من دون أن نلتقيَ فيه، وكانت اللِّقاءاتُ تتضاعفُ ساعاتُها أيَّام الإجازات، فكان مَقامي في بيتِهِ في (الدُّويلعة)، ثمَّ في (المُعَضَّمِيَّة) طَوالَ النَّهار، وربَّما امتدَّ ساعاتٍ من اللَّيل، وكان الكلامُ يدور بيننا حولَ الأشعار المُسْتَغْلِقة التَّوجيه، أو الألفاظ التي تكونُ مَظِنَّةَ التَّحريف والتَّصحيف، فضلًا عن قراءة الجُزأينِ الأوَّلَين من مَخْطوط الإكليل، وكذا شرح القصيدة الدَّامِغة، وكلاهما للهَمْدانيِّ، وكنت أَعْجَبُ بعدَ أن غادَرتُ بلادَ الشَّام من صَبْر أهلِهِ عليه وهو يقضي سَحابةَ النَّهارِ معَ غير أولادِه وأهلِهِ، فجَزاهُ الله عنَّا خيرَ الجَزاء، وصَبَّرَ أهلَهُ على فِراقِهِ أضعافَ صَبْرِهم على انصِرافِهِ عنهُم أيّامَ حياتِه.

***

تمتَّع محمَّد شفيق البَيْطار بنَفْسٍ رَضِيَّة، وتسليم جَمٍّ بما قُسِمَ له، فكان عَطاؤُهُ لغَيرِهِ غيرَ محدودٍ ولا مَجدُود، فاستفادَ من عِلْمِهِ خَلْقٌ كثيرٌ، وانتَهَب النَّاسُ وقتَهُ، فأَثْرى مَنِ استفاد، واغتَنَى مَنِ انْتَهَب. وبقي غَنِيَّ النَّفْسِ، قليلُهُ كثيرٌ، ولم يَترُك من الآثار بعد رسالتَي الماجستير والدُّكتوراه، ما يُعادِلُها أو يُدانيهما إلا ما كان من تحقيقِه (اختيارات ابن مُسافرٍ) الذي شاركته إيَّاه، أو ما كان من معاناتِهِ في تحرير نسبة كتاب (حرب البَسُوس بين بَكْر وتَغْلِب) لابن الكَلبِيِّ، فيما كان يَرى رحمه الله، وهو عمَلٌ لم يُتِمَّهُ، وهو المَعروفُ بين النَّاس بـ(تاريخ الحروب العربيَّة بين بكر وتَغْلِب ابنَي وائل بن قاسِط)، وهو كتابٌ يَمورُ مَطبوعُهُ بالتَّصحيف والتَّحريف حتَّى مُشاشِهِ، وقد أَخَذَ عن هذا الكتاب أُناسٌ كُثْر، ففَشا فسادُهُ وغُثاؤه، وما به من عُوارٍ في كثيرٍ من الكتب المُتعاوَرة. وكنت قد وقَفتُ على قطعةٍ من عمل الدُّكتور في كتاب البَسوس قبل أشهُرٍ من وفاته، فرأيتُها تُحْفةً من التُّحَف، ورأيتُ جُهدَهُ فيها يُضاهي صَنيعَ ابن الكلبيِّ نفسِه.

***

رحم الله أبا عبد الرَّحمن محمَّد شفيق البَيْطار، وأسكنَه فسيحَ جنَّاته، وأنزلَهُ منزِلَ صِدْقٍ مع الشُّهداء والصِّدِّيقين، وجعلَ خِدمتَه للعربيَّة وأهلِها شَفِيعًا له يومَ القيامة، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعون.

الدّوحة، الأربعاء، 22 كانون الثاني، 2025م